اثنين غيرنا!

لم يدرِ كيفَ مَرَّ به العمرُ سريعًا على مثلِ هذا النحو حتى وقفَ على أعتابِ الكهولةِ يودِّعُ مرحلةَ الشبابِ... سنواتٌ طويلةٌ مرَّت... أحلامُ الطفولة وعنفوانُ الفُتُوَّةِ والشبابِ... الدراسة... العمل... الزواج... الإنجاب... أمورٌ حياتية مرَّت بشكلٍ طبيعيٍّ مألوف مثلما تمرُّ على غيرِه... أفاقَ بعد لهاثِه الطويلِ في سباقِه مع الزمنِ وقد استوطنت جسدَه المكدودَ في السعي خلف لقمةِ العيشِ الأمراضُ... والحمد لله، إنَّها تلك الأمراض المعتادة التي تزورُ أهلَ هذا العصر في سنٍّ مبكرة - وأغلبنا في ذلك سواء- في حين لم تكن تزورُ أسلافَنا إلا في سنِّ الشيخوخة...

كم فكر (سيد) في الأمرِ وتأمَّله! تذكَّرَ والديه - رحمهما الله- اللذين لم يعرفا سِكَّةَ الطبيبِ إلى أن توفَّاهما الله بعد أن قاربا التسعين... ربَّما لو عاشا الحياةَ التي يحياها بضغوطِها وأعبائِها لكانَ الأمرُ انتهى بهما على صورةٍ أخرى مغايرةٍ!!

جلسَ (سيد) في عيادةِ التأمينِ الصحي ينتظرُ دورَه في صرفِ الدواءِ... كانت العيادةُ مكتظَّةً بعددٍ كبيرٍ من المنتفعين... كبار، وصغار... رجال، ونساء... وجوه مكفهرة من أصحاب العلل... وجوه بائسة من

طاقم العمل... أطباء... ممرضات... عاملات... مرتبات ضئيلة واهتمام مفقود... علاقة متوترة تخرجُ في صورةِ تعنيفٍ وتعالٍ من طرفٍ، واتهامٍ بالتقصيرِ من الطرفِ الآخرِ!

مَرَّ عليه الوقتُ ثقيلَ الظلِّ... بطيئًا مملًّا... لم يجد (سيد) ما يسلِّيه سوى تأمُّلِ أحوالِ الناسِ من حولِه، عملًا بالمثل القائل: "اللي يشوف بلاوي الناس تهون عليه بلوته"...

- الحمد لله... إحنا أحسن من غيرنا!

تفرَّسَ (سيد) في وجهِ المرأةِ التي كانت تجلسُ قُبَالته... لم تكن ملامحُها غريبةً عليه... حاولَ أن يتذكَّرَها... اعتصرَ ذهنَه لعلَّه يزوِّدُه بتفاصيلَ العلاقةِ التي كانتْ تربطُ بينه وبين صاحبةِ تلك الملامحِ التي لا يزالُ يُشَبِّهُ عليها... ويبدو أن ذهنَه نالَه من الإجهادِ ما نالَ من جسدِه... حاولَ... وحاولَ... أجهدته المحاولةُ... لا يدري لمَ قفزتْ في ذهنِه فجأةً ذكرياتُ أيامِ الجامعةِ... كليَّة الآدابِ قسم علمِ النفسِ... كانَ مضربَ المثلِ بين زملائه في الوسامةِ... رياضي الجسم... ممشوق القوام... مستدير الوجه... مسترسل الشعر...

كيفَ جارَ عليه الزمانُ الغادرُ إلى أن صارَ إلى ما صار إليه؟! جسد منحنٍ... بدن مترهل... كرش ضخم... وجه هزيل يحوي عينين غائرتين،

وخدين مسحوبين... تتوسطُ أعلى رأسِه مساحةٌ خاليةٌ من الشعرِ، وعلى الجانبين لا يحملُ من ذكرى الشبابِ سوى بضعِ شعراتٍ سوداءَ وسط كومتين من الشعرِ الأبيضِ...

قذفتْ به عيناه من جديد إلى ملامحِ ذلك الوجه الذي يرميه إلى ساحلِ بحرٍ من ذكريات ماضٍ لم يحدِّد بعد ملامحه... تشبهُ إنسانةً لا يمكنُ أن ينساها... الحبُّ الأولُ... حبُّ الأيامِ الأولى في الجامعة... (سامية)... كانت أجمل فتاةٍ في الجامعةِ... صحيح، إنَّ الحُسْنَ درجاتٌ... وللجمالِ أماراتٌ... لكنَّها حظيت من الحسن والجمال بنصيبٍ وافرٍ... جمال الملامح... خِفَّة الروح... سحر اللفتات... عذوبة الكلمات... الجمال الغامض الذي يجعلك تتحيَّر في صاحبته، تتساءل متحيِّرًا عن أجمل شيءٍ فيها؟! فلا تتوصَّل إلى إجابةٍ شافيةٍ...

صاحتْ المرأةُ في عددٍ من الصغارِ أحاطوا بها... ساد المكان فجأة... "شَخْط ونطر"... صراخ... ولولة على سوء البخت...

قُطِعت تخيلاتُه فجأةً على حقيقةٍ واقعةٍ... لا يمكنُ أن تكونَ هي (سامية) الرقيقةَ الجذابةَ... اشمأزَ لفظاظةِ كلامِها... انتفضَ لعنفها... شاهدَها وهي تنخسُ طفلَها... رُسمت على وجهِها ملامحُ الغضبِ بتكشيرةِ تهديدٍ مفزعة وجهتها إليه وهي تضربُه على وجهِه بقسوةٍ...

حملقَ في وجهِها بتركيزٍ فلاحظت المرأةُ وبادلته نظرةً شرسةً مهددةً ورمقته شزرًا، ثم وجَّهَت كلَّ انتباهها من جديد إلى أحدِ صغارها كان شقيًّا لا يقرُّ له قرارٌ... يروحُ ويجيءُ في حالةٍ من هستيريا اللعب، وجنونِ الطفولةِ المشردةِ...

تعجَّب كيفَ ربطَ بين الشخصيتين في ذهنه فأسرَّها في نفسِه:

"لا يمكن تكون دي (سامية) أميرة كليَّة الآداب وفاتنة الجامعة... صحيح فيه شبه في بعض الملامح، لكن الجسم مختلف! أين غصن البان من شجرة الجميز؟! فين قوام الغزلان من جسم سيد قشطة؟!

فقد كانت امرأةً بدينةً... تلفُّ رأسَها بطرحةٍ سوداءَ، وتحوطُ جسدَها بثيابٍ فضفاضةٍ واسعةٍ!

تكرَّرَ نداءُ الموظفِ على نافذةِ صرف العلاج:

- مدام (سامية عامر)...

أرهفَ السمع.. عادَ المنادي ليكرِّر الاسم..

قالَ في نفسِه:

يخلق من الشبه أربعين!! طيب... كمان الاسم؟! دي آخر واحدة ممكن تكون هي (سامية) اللي أقصدها!

وكم كانت المفاجأة حينما تحرَّكت المرأةُ لتجيبَ مناديها! كانت المرأةُ هي (سامية) بعينها!

تسمَّرَ (سيد) من المفاجأة... مَرَّتْ عليه لحظاتٌ، كانت المرأةُ قد تلقَّت أثناءَها الدواءَ، وتحرَّكت نحو البابِ خارجةً...

لم يكن لمثلِه أن يضيِّعَ تلك الفرصة التي ربَّما لن تتكرَّر... عشرات السنين لم ينسها... يحلمُ بها... يتمنَّى لقاءَها... حتى بعد أن تزوَّجَ بأخرى وأنجبَ الأولادَ والبنات!

وقفَ أمامها فجأةً... اعترضَ طريقَها... زمجرتْ غاضبةً وانفجرتْ في وجهِه:

- وبعدين يا راجل انتَ؟! انت ما وركش غيري ولا إيه؟! سيباك من الصبح بتبص عليَّ وتعاكسني ودلوقتي واقف لي! هتوسَّع من طريقي ولَّا...!

قاطعها بلطفٍ رغم أسلوبِها الفظِّ، وبرقَّةٍ شديدةٍ خاطبَها:

- انتِ مش فكراني؟!
- يا عم وسَّع من طريقي! انت عايز إيه يا جدع انت!!
- أنا (سيد محمدين)... كلية الآداب... قسم علم النفس...
- ...!!

- انتِ مش فاكراني يا (سامية)؟!

وبصعوبةٍ وبجهدٍ كبير... أجابتْ:

- أيوه... أنا (سامية)... أيوه... وفاكرة (سيد)... (سيد) فلانتينو الجامعة... لكن انتَ مين؟! مش ممكن تكون انتَ هُو؟! أنا فاكرة شكله كويس!

وفجأةً التفتت... جرتْ خطوتين لتنتزعَ ابنها الشقي من الأرضِ التي يتمرَّغُ فوقها صارخًا... جذبته بعنف... صرختْ فيه:

- ياللا يا اللي تتشك في قلبك نروَّح! انتَ تعبتني!

لم تلتفت الأمُّ إلى محدِّثها... وانطلقت هي وأطفالها الأربعة في طريقهم...

أيقنَ (سيد) أنَّه فقد ذكرى تلك الأيام الجميلة مثلما فقدَ ثوبَ الشباب... قالَ في نفسِه:

"دي مش (سامية)!!"

وتحرَّكت عيناه إلى مرآةٍ تحتل نصفَ الحائطِ أمامه، لينظرَ إلى صورتِه، مستكملًا حديثَ نفسِه:

"ولا ده (سيد)! لها حق ما تفتكرنيش!"

وقالَ مازحًا في نفسِه، وإن علا بها صوته:

- دول لازم اتنين غيرنا!!